يستطيع ان ينبئ بتحقيق الامال

والجش مبنية على سفح جبل وهي تنحدر من الشمال الى الجنوب وبناؤها بسيط جداً فبيتٌ واحد يأوي العائلة ومؤونتها والمواشي معاً فيجمع صاحب البيت ماله حوله ليلَ نهارٍ مخافةً من اللصوص

ومياه الجش غزيرة طيبة تتدفق ينابيعها من سفح الجبل الشرقي فتنحدر جداولها الى عمق الوادي ويسمونه وادي الجش او وادي المعظمية

ومسيحيو الجش اتقياء يحافظون على دينهم وتقاليدهم فاذا قُرع الجرس ترى جمهورهم يؤمّون المعبد القائمة فيه الصلاة سواء كان للموارنة او للروم الكاثوليك فيشتركون بالطقوس الكنائسية والتراتيل ولما أُلقيت عليهم عظات الرياضة رأينا من غيرتهم على الاجتماعات الدينية وتزاحمهم في التقرب من القربان المقدس ما يأخذ بمجامع القلوب ويسرّ السماء والارض

كان ختام الرياضة في ٤ آذار وأُعطيت البركة الرسولية مع الغفران الكامل وقد نصبت جميعُ العائلات قلبَ يسوع الاقدس ملكاً عليها وتمّ العمل الذي من اجله اوفدنا راعي الابرشية فودّعنا شعب الجش المبارك وغادرنا القرية الى عين ابل يصحبنا ويرشدنا الى الطريق وكيل كنيسة الجش الوجيه يعقوب الحداد وقد اعارنا جواده . انحدرنا الى عمق وادي المعظمية وقطعنا النهر ودرنا ميمنة سائرين على طرف تلال عين صوف وكانت السماء متلبدة بالغيوم فاخذت تمطر ثم انجبست فوصلنا عين ابل وقد قطعنا المسافة بينها وبين الجش بمدة اربع ساعات ونصف (لها بقيّة)

الطائفة المارونيّة والرهبانية اليسوعيّة

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمّة ما سبق)

٢ اليسوعيون والموارنة في دمشق

رسالة دمشق هي الثانية من رسالات اليسوعيين في سوريّة بعد حلب . فُتحت

سنة ١٦٤٣ لمَّا تعيَّن بطريركاً على طائفة الروم الملكيين مطران حلب ملاتيوس الصاقزلي الذي دُعي بانتيميوس عند ترقيه السدَّة البطريركيَّة وكان المطران المذكور مشغوفاً بحبّ جيروم كوبرو اليسوعي المرسل في حلب فطلب اليه ان يرافقهُ الى دمشق ليكون كاتب اسراره فيها ومهذباً لابناء طائفته. فاجاب الى ملتمسه وسكن في دمشق في الدار البطريركيَّة واخذ يعلّم اللغة اليونانيَّة احداث الروم ويشرح للاكليروس اعمال الآباء اليونان كيوحنَّا فم الذهب ويوحنَّا الدمشقي فاصاب شهرة واسعة لكنَّهُ اثار حسد البعض. ولمَّا بارح السيد البطريرك دمشق بعد تسعة اشهر اضطرَّ الاب اليسوعي ان يخرج ايضاً من المدينة

لكنَّه بعد ان تغيَّب مدَّة عاد اليها مع احد الاخوة المساعدين فسكن بيتاً مأجوراً وعاد الى اعمالهِ الرسوليَّة التي اكسبتهُ صيتاً عظيماً لدى نصارى الشام. واذ حدثت في تلك الاثناء حرب الدولة العثمانية مع البنادقة وأُلقي الاجانب في الحبس وكان من جملتهم الاخ اليسوعيّ المدعو غليوم بَنْجن لم يجسر الاتراك على توقيف رئيسهِ الاب كوبرو لِما شاع في البلد من سموّ فضلهِ وقداستهِ

وكان في دمشق رجلٌ ايطاليّ يُعرف بميشال كوندوليو في خدمة الدولة العثمانيَّة وهو رئيس الطوبجيَّة فهذا عَشِق الاب اليسوعيّ ودافع عنهُ بشهامة لدى أولي الامر وأدَّى لهُ ولاخوته خدماً مشكورة اخصُّها انَّهُ اقتنى للمرسلين ملكاً اتخذوهُ منزلاً لجماعتهم ومركزاً لاعمالهم الرسوليَّة فجعلوهُ تحت حماية القديس بولس الرسول. وترقَّت المدرسة التي فتحها الاب كوبرو حتى زاد تلامذتها على المئة. وبلغ عدد المتخرّجين فيها بعد عشر سنين ما ينيف على الالف. ومن ذاك الزمن خصوصاً تألَّفت في دمشق الطائفة الروميَّة الكاثوليكيَّة

كانت وفاة الاب كوبرو سنة ١٦٥٣ فبكاهُ النصارى على اختلاف طوائفهم ودفنوهُ بكل اكرام كأعزّ ساداتهم. وسار اليسوعيُّون على مثالهِ في خدمة الدمشقيين في طول ذلك الجيل السابع عشر اشتهر بينهم الآباء بارڤيليه (Parviliers) وريشليوس (Richelius) ورستو (Resteau) وكليسون (R. Clisson) وميشال نو (M. Nau) ولكلهم مآثر طيبة تشهد لها كتابات ذلك الزمان

وقد ترقَّت مدرستهم في الفيحاء حتى ضاق المكان عنهم واضطرّ المرسلون الى

نقلها الى معاهد اوسع . وكانوا يقومون في المدينة بسائر الاعمال التقوية من وعظ وارشاد وتعليم وتأليف كتب . وكانوا اذا سمح لهم الوقت يتجولون في القرى المجاورة الى المعرة وصيدنايا حيث ارشدوا راهباتها

وكان اكثر شغلهم مع الروم وهم العدد الاوفر من نصارى دمشق يبلغون اذ ذاك ٧٠٠٠ نفس . وكانوا يهتمون ايضاً بالموارنة وهم في دمشق قليلون لا يتجاوز عددهم بضع المئات . وكانت كنيستهم صغيرة حقيرة وكهنتهم مقترنين بالزواج مهتمين بامور بيوتهم وكان اساقفتهم يسكنون لبنان يشغلهم البعد عن العناية بطائفتهم . فكان اليسوعيون يتولون تدبيرهم وتهذيب اولادهم ويردون عنهم دسائس اعدائهم . على انَّ واحداً من ملتهم المدعو قرقماز مرق من دينه فأسلم وهيج عليهم الشعب فنهبوهم وأحملوا النار في كنيستهم . فكان الآباء يعزونهم في بلاياهم ويهمون في تجديد كنيستهم

٣ الموارنة واليسوعيون في رسالة صيداء

رسالة صيداء أنشئت سنة ١٦٤٤ اي سنة واحدة بعد رسالة دمشق . وكان سببها انَّ الطاعون فشا في دمشق فتولى خدمة المطعونين الاب فرنسيس ريفردي اليسوعي غير هيّاب من فتك الوباء . فشكره العموم على تفانيه . ولما اخذ الوباء ينتشر في صيداء كتبت الجالية الفرنسوية التاجرة هناك بان يرسل اليهم الاب المذكور ليقوم بخدمتهم كما فعل في دمشق وكان الكتاب مُنضى بختم رئيس الرهبان الفرنسيين هناك الاب كرسه . فلبّى الاب ريفردي دعوة الصيداويين وافرغ المجهود في إسعافهم والقى عليهم عظات الصوم فاقبلوا عليها بتزيد الشكر حتى انَّهم بعد بطلان الطاعون طلبوا اليه أن يسكن بينهم ويخدمهم في امورهم الروحية وصدَّق رئيس الفرنسيين على ملتمسهم فرضي الاب ريفردي . وبعد مراجعة رؤسائه اتى الى صيداء مع راهبين آخرين فسكنوا في بعض معاهد الخان الفرنسوي التي عيّنها لهم القنصل والتجار الفرنسويون . تلك كانت مبادئ رسالتهم في صيداء التي جعلوها تحت حماية القديس اغناطيوس

ما عمَّ اليسوعيون حتى انشأوا في صيداء عدَّة مشروعات روحية منها في خدمة الفرنسويين ومنها لصالح الوطنيين فاقاموا للفرنسويين اخوية على اسم العذراء البرية

من الخطيئة الاصليَّة أتت باثمار عجيبة فانتظم فيها قناصلهم واعيانهم فاصبحوا قدوةً لكل اهل صيداء. وكانوا يرشدون القادمين الى المدينة على مراكب دولتهم ويتفقَّدون أسرى الحرب. وكانوا يلقون المواعظ في كنيستي الموارنة والروم ويهتمُّون بارشاد فقرائهم وتهذيب ناشئتهم. ولمَّا عهد الرؤساء الى الاب ريغُرْدي السفر الى العجم ليثنيَ هناك في اصبهان رسالة لرهبانيَّته قام بخدمة الصيداويين بعدَهُ آباء ذوو غيرة وصلاح جروا على آثاره وسعوا بترقية اعماله وإنمائها فاشتهر بينهم الآباء جان اميو (J. Amieu) وجلبرت (Gilbert) وريغو (Rigault) وبوارسون (Poiresson) وجان ڤرسو (J. Verseau) وكلُّهم من مرسلي القرن السابع عشر اصبحت صيداء بهمَّتهم وبجلول التجار الفرنج فيها من المدن الراقية

وكان الآباء يتردَّدون على القرى اللاحقة بصيداء لاسيَّما المارونيَّة فيرشدون اهلها ويعلِّمون فيها التعليم المسيحيّ. وكانوا في زمن الصوم الكبير يقصدون عكَّا ويتولَّون فيها اعمال التبشير. وكذلك كانوا يفعلون في بيروت قبل أن يتبرَّع عليهم الشيخ ابو نوفل الخازن بدار يسكنونها كلَّما دعتهم اليها اعمال الرسالة. وكانوا يرشدون الشعب في كنيسة الموارنة المبنيَّة على اسم القديس جرجس وعلى بابها دُفن رئيس رسالتهم الاب جان اميو في ٦ تشرين الثاني سنة ١٦٥٣ وكان قصد بيروت بعد ان تجوَّل في انحاء الجبل للتبشير ولتوزيع الاسرار اذ أُصيب بحمّى خبيثة كانت القاضية على حياته فمات ميتة الابرار في دير الآباء الكبوشيين (١

٤ الموارنة ورسالة اليسوعيين في طرابلس

هو الاب جاك اميو السابق ذكرهُ الذي تولَّى انشاء رسالة رهبانيَّته في طرابلس. وكان ارسل قبلهُ الاب ريغُرْدي ليراقب احوال المدينة ويُعدَّ منزلًا للمرسلين سنة ١٦٤٥. فبعد عودته سافر هو اليها بحرًا وكان وصولهُ اليها في زمن مشؤوم اذ اتت اوامر من السلطان لتشوب الحرب بين الدولة العليَّة والبندقة ان يصادروا كلَّ الاجانب ويقيِّدوهم بالاغلال فقبض العمَّال على الاب اميو وحبسوهُ في سجن مظلم كابد فيه ضروب العذاب مدَّة ثلثة اسابيع ثمَّ أُطلق سراحهُ ووجد في المدينة دارًا

(١) الطب آثار النصرانيَّة في المشرق للمرحوم الاب رباط (١ : ٤٢٢-٤٢١)

ذات ثلث غرف اقتناها للرسالة اليسوعيَّة واتَّخذ لها محامياً القديس يوحنَّا الحبيب لدخوله المدينة يوم عيده في ٦ أيار. وكان نصارى طرابلس اذ ذاك لا يتجاوزون الالف ٧٠٠ منهم روم و ٣٠٠ موارنة

وما لبثت رسالة طرابلس ان أصبحت يانعة الثمار وفيها كان يقيم غالباً رئيس الرسالة في الشام لوقوعها في وسط انحاء البلاد. وكان اوَّل ما وجَّهوا اليه نظرهم لمساعدة النصارى ان يفتتحوا مدرسةً للاحداث تزاحمت فيها ناشئة البلدة وجارت مدرستهم في دمشق بنجاحها. وكانوا اذا وجدوا بين تلامذتهم الموارنة اولاداً نجباء اتقياء يعدُّونهم لمدرستهم المارونيَّة في رومية فيرسلونهم اليها ليتخرَّجوا فيها بالآداب الكهنوتيَّة ويساعدوا طائفتهم بعد ان تفقَّهوا فيها واتقنوا علومها

ثمَّ اقبل الاباء في طرابلس على تهذيب الاكليروس وارشاد الكهنة بايعاز السادة الاساقفة. فكانوا حيناً يجمعونهم لرياضات سنويَّة وحيناً يعرضون عليهم المشاكل اللاهوتية فيحلُّونها امامهم وتارةً يصلحون ما يرونهُ من الخلل في اتمامهم الفروض الطقسيَّة وتوزيع الاسرار

ومن اشغال اليسوعيين في طرابلس عيادتهم للمرضى. وكان بينهم ولاسيَّما من الاخوة الساعدين مَنْ يتقن الطبابة ويُحسن معالجة الاعلاَّت. فكانوا يؤدون للاهلين على اختلاف طوائفهم واديانهم خدماً جليلة لوجه الله لا يقبلون عليها اجرةً ما. وكانت عنايتهم هذه بالمرضى تتضاعف في أيَّام الاوبئة فكانوا يقضون ليلهم مع نهارهم في علاج المطعونين وقد مات غير واحد منهم شهيد محبَّته

ثمَّ ان اليسوعيين اتَّخذوا مدينة طرابلس كمركز خاصّ لسياحاتهم الرسوليَّة في شمالي لبنان وفي سواحل البحر من البترون جنوباً الى اللاذقيَّة وطرطوس شمالاً. فكانوا يتوغَّلون الجبل خصوصاً في أيَّام الصوم ويعدُّون الموارنة هناك لعيد الفصح المبارك لاسيَّما في القرى المأهولة كاهدن وزغرتا وبشرّاي وحصرون. ويسعون طاقة جهدهم في اصلاح الاعداء وتأليف القلوب وازالة اسباب الشحناء والبغض. قد اشتهر بذلك الاب امير منشئ تلك الرسالة ثمَّ الاب فرنسوا لمبار (Fr. Lambert) وبولس غرده (P.Godet) ونقولا بزير (N. Bazire) وغيرهم. وقد أدَّت بهم غيرتهم الى ان طافوا انحاء عكَّار ودخلوا جبال النصيريَّة وتفقَّدوا من كان فيها من النصارى

احدى بناتهِ على عثمان فامر الفرافصة ابنَهُ ضبًّا فزوَّجها اياهُ وكان ضبّ مسلماً وكان الفرافصة نصرانيًّا وقد اوصاها قبل فراقها بما يحسن بها فعلمهُ اذا صارت بين نساء قريش . (قال) فلما حُملَت كرهت الغربة وحزنت لفراق اهلها فأنشأت تقول لاخيها ضبّ (من الطويل) :

أَلستَ تَرى يا ضَبُّ بالله انَّني مُصاحبةٌ نحو المدينة أَركبا
اذا قطعوا حَزْناً تحت ركابهم كما حرَّكت(١ ريحٌ يراعاً مُثقَّبا
لقد كان في ابناء حصن بن ضمضم لك الويلُ ما يغني الحِباءُ المطنَّبا(٢
قضى الله حقًّا ان تموتي غريبةً بيثربَ لا تلقينَ اماً ولا أبا

ولابن عائشة المغنّي لحنٌ في هذه الابيات . ثمَّ ذكر ابو الفرج دخولها على عثمان فقال لها : ألا تكرهين ما رأيتِ من شيبي . فقالت : اني من نسوة احبُّ ازواجهن اليهنَّ الكُهول . وانَّما كانت من أَحظى نسائهِ عندهُ . وفي كتاب البدء والتاريخ (٥ : ٢٠٢) انهُ اعطاها مائة الف من بيت المال

وكانت نائلة ابيَّة كريمة الطبع فلمَّا تآمر الناس على عثمان في السنة ٣٥ هـ (٦٥٦م) وحصروهُ اربعين ليلة صرفت نائلة زوجها عن نصيحة مروان بن الحكم فشتمها مروان وذكر نصرانيَّة والدها بقولهِ (الطبري ١ : ٢٩٧٤–٢٩٧٦) : « وما انت وذاك فوالله لقد مات ابوك وما يُحسن يتوضَّأ فقالت لهُ : مهلًا يا مروان عن ذكر الآباء تُخبر عن ابي وهو غائب تكذب عليهِ وانَّ اباك لا يستطيع ان يدفع عنهُ . أما والله لولا انهُ عمُّ(اي عمّ عثمان) وانهُ ينالهُ عنهُ اخبرتُك عنهُ ما لن اكذب عليهِ » . فاراد مروان ان يتعرَّض لها فقال عثمان : « لا تذكرنَّها بحرفٍ فأَسوَدَّ لك وجهك فهي والله انصحُ لي منك » . فكفَّ مروان

وما لبث الناس ان تسوَّروا دار عثمان ومعهم السيوف يتقدَّمهم محمَّد بن ابي بكر فجلس عثمان والمصحف في يدهِ فنشرت نائلةُ شعرَها فقال لها عثمان : خذي

١) ويروى : كما زعزعت ٢) حصن بن ضمضم من اجداد نائلة . ويروى في نتيان حصن . . ما يغني الحباء المحجَّبا

الجمهور . فكانوا لا يخرجون من القرية الّا بعد ان يتلافوا كلّ امورها ويصلحوا ما طرأ على أهلها من الخلل في اتمام واجباتهم الدينيّة والادبيّة والاهليّة لاختلاطهم بالامم الغريبة

وعلى هذا المنوال بلغ المرسلون الى اعالي لبنان حتى بكفتا وانتقلوا الى جبل الشيخ وقراها المارونيّة . ودخلوا ايضاً اديرة الرهبان وشرحوا لهم قوانين دعوتهم وحرّضوهم على بلوغ الكمال الرهبانيّ

وكان في الوقت ذاته قد رجع الى لبنان كثيرٌ من تلامذتهم المتخرّجين في رومية تحت نظارتهم في المدرسة المارونيّة فحذوا حذوهم في اعمالهم الرسوليّة كما رأيت من الاثر الذي نشرناهُ قبل هذا للطيب الذكر البطريرك الدويهي

واذ وصلنا الى حدود القرن السابع عشر انجزنا ما توخينا بيانهُ من احوال الطائفة المارونيّة وما اتاهُ اليسوعيّون خدمةً لأهلها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد بقي علينا ان نذكر الصلات التي جرت بينهما في القرن الثامن عشر الى زمن الغاء الرهبانيّة اليسوعيّة نؤجل ذلك الى فرصة أُخرى ان شاء الله (تمّ)

الأَسد الشَّكُور

توطئة

أطلعنا جناب الوجيه نقولا افندي الترزي على مخطوط عربي قديم من مكتبته يشتمل على مجموع مقالات ادبيّة ودينيّة وتاريخيّة فوجدنا في جملتها القصّة الآتي ذكرها . وكنّا قرأناها سابقاً في اعمال الآباء اليونان لميني (Migne: PP. GG., vol. 87, col. 2966-2970) في كتاب المرج الروحي (في الفصل ١٠٧) ليوحنّا موسخوس من كتبة القرن السابع وذلك في سيرة أحد مشاهير الآباء النسّاك وهو القديس جراسيموس ابي الرهبان وتلميذ القديس افتيميوس في بقعة الاردن حيث انشى ديراً كبيراً ترأسهُ الى سنة وفاته ٤٧٥ م . والقصّة المذكورة هي من اصدق الروايات وفيها مثال لطيف لتأثير الحيوانات وانقيادها لمن يعاملها بالحُسنى . وما كنّا لنظنّ انّها نُقلت الى العربيّة فسُررنا بوقوفنا عليها في المخطوط المذكور فنرويها تفكهةً للقرّاء

ل . ش